إنّ النقطة التي انطلقت منها البحوث اللسانية في تحليلها البنوي للألسنة البشرية هي الاجماع على أنّ اللسان نظام من الوحدات تتداخل بعضها ببعض على شكل عجيب وتتقابل فيما بينها تقابلا تحصل به فائدة ودلالة وهذا هو التبليغ. وقد أكد دي سوسور على ذلك في دروسه المشهورة وسع هذه الفكرة رواد الصوتيات الوظيفية والمذهب الوظيفي.

إنّ صاحب هذه المدرسة وزعيمها هو اللغوي الفرنسي أندري مارتيني الذي أوضح أسسه فيما نشره من كتب ومقالات أهمّها مبادئ في اللسانيات العامة [3] وسميت هذه المدرسة بالمدرسة الوظيفية لأنّ الباحث فيها يحاول دائما أن يكتشف ما إذا كانت كل القطع الصوتية التي يحتوي عليها النص تؤدي وظيفة في التبليغ أم لا، يعني أنّه يبحث عن القطع التي تلعب دورا هاما في التمييز بين المعاني.

نفهم من ذلك أن هذه المدرسة تتخذ المعنى مقياسا هاما في تحليلها للنصوص الغوية وتعتبر أنّ المعنى يتغيّر بتغيّر اللفظ وهذا يقتضي شيئين في الحقيقة، إذا تغير المعنى فلا بدّ أن يتغير اللفظ وإذا ثبت على حال واحدة فلا بدّ أن يثبت المعنى كذلك.

فاللسان – كصورة – هو مجموع المباينات الحاصلة بين عناصره وعلى هذا فكل عنصر فيه تفاضلي وتباييني. وبالتالي ما يمكن أن نستخلصه من هذا الكلام هو أن النظام اللغوي مبني على مفهوم العلاقات التي تربط العناصر اللغوية وان هذه العلاقات تشكل نظما جزئية تتداخل فيما بينها في كل مستوى من المستويات اللسانية.

فما هي طبيعة هذه العلاقات وكيف تتم ؟ إنها تحصل على محورين أفقي وعمودي. المحور الأفقي تتشكل فيه العلاقات التي تربط العناصر ببعضها البعض في سياق الكلام وتسمى العلاقات التركيبية أمّا المحور العمودي فتندرج فيه العلاقات الناتجة عن انتماء العناصر الى جنس واحد والذي يمكن أن تستبدل فيه بعناصر أخرى من جنسها في نفس الموقع من المدرج أو السياق وتسمى العلاقات الاستبدالية ويمكن اكتشاف طبيعة هذه العلاقات بواسطة عمليتين هما التقطيع على المحور الأفقي والاستبدال على المحور العمودي [39].

واللسان كما تبيناه أعلاه يتقطع الى وحدات صغيرة على مرحلتين نحصل في كل واحدة منهما على نوع معين من الوحدات. وحدات المرتبة الأولى فهي

الكلمات أما وحدات المرتبة الثانية فهي الحروف التي لا تدل على معنى. فعندما نقطع نصا نحلله الى هذه الأجزاء الصغرى ونتوصل إلى ذلك باستعمال الاستبدال حيث أنّ استبدالنا لعنصر بعنصر آخر في نفس الموضع يوضح لنا المكان أي الموقع الذي فيه يمكن أن نجري التقطيع. وعدد الحروف في كل لسان محصور ومحدود بين 15و 50 حرفا وتختلف باختلاف اللغات أما الكلمات فعددها لا متناه لا يمكن حصره وهي عبارة عن تركيب معين لعدد معين من الحروف فنقول مثلا أن كلمة فرس تتكون من خمسة أحرف هي الفاء ثم الفتحة فالراء وفتحته وأخيرا السين.

مقتطف من كتاب مبادئ اللسانيات – لخولة طالب الإبراهيمي–

تحليل النص: يعدّ هذا النص امتدادا لجهود وإنجازات رواد مدرسة براغ، لذلك سأعمد إلى تحليل أهم النقاط الأساسية التي أضيفت في هذا النص وهي:

1 –تدور القضية الجوهرية المطروحة في النّص حول إبراز الجانب المحوري الذي بنيت عليه مدرسة براغ التي أضحت تسمى بالمدرسة الوظيفية لطغيان هذا الجانب في منهج تحليلهم للنظام اللغوي، وهذا بزعامة العالم الفرنسي أندري مارتيني، وما أرساه من أسس في التحليل الوظيفي.

2 –تبين لنا الفقرة الأولى مدى التأثير الذي تركه سوسير بأفكاره ومفاهيمه في المجال اللساني على تلامذته ومن جاؤوا بعده، ذلك أن كل فكرة أومفهوم أتى به يمثل دعامة لتأسيس اللسانيات كعلم، ما أدّى إلى تبنّيها وتوسيعها وتطويرها. فكان المنطلق فيها هو اعتبار اللسان نظاما من العلامات اللغوية المتفاعلة فيما بينها لتأدية الغرض الأسمى في اللغة وهو التبليغ .

3 - في الفقرة الثانية والثالثة من النّص نلمح حديثا عن أندري مارتيني، والمنطلقات التي ارتكز عليها لتحليل النصوص اللغوية، وهذا من خلال إبراز الأدوار الوظيفية التي يلعبها كل مستوى من المستويات اللغوية المشكلة للنظام بدءا بالمستوى الصوتي ودوره في تشكيل المعاني وصولا إلى المستوى الأخير.

4 –نلاحظ في الفقرة الرابعة كيف صوّرت لنا صاحبة النص مفهوم اللسان من منظور المدرسة الوظيفية، وهو كونه قائم على مبدأي التباين والتفاضل في كل عنصر من العناصر المكونة لهذا اللسان، ولولاهما لفقدت تلك العناصر(الوحدات اللغوية) قيمتها وأهميتها في تجسيد مفهوم هذا النظام، ولتعطّلت الرسالة التواصلية بين الأفراد، ويعود الفضل في تشكيل هذا التباين والتفاضل والتمايز في تلك العلاقات الرابطة بين تلك العناصر المتدرجة فيه.

5 –وفي الفقرة الخامسة يتجلّى بوضوح ماهية تلك العلاقات المسهمة في الدور الذي تلعبه تلك العناصر في النظام، و تتساءل صاحبة النص عن سرها ، كيف تشتغل ، وكيف تجعل من تلك العناصر سلسلة منسجمة مع بعضها البعض؟ والجواب هو: أنها تشتغل وفق محورين هامين لا غنى عنهما في تأسيس الكلام، وهما المحور الأفقي والمحور العمودي، بحيث تجري على المحور الأفقي علاقات تركيبية تسهم في ربط الوحدات اللغوية ربطا نحويا منطقيّا (كوظيفة الوحدات النحوية في التركيب) وتجري على المستوى العمودي العلاقات الاستبدالية المبنية على أساس النوع والجنس الذي تنتمي إليه صنف ما من الوحدات اللغوية بحيث تستبدل بنوعها أو جنسها في نفس الموقع الذي تحتله من سلسلة الكلام أو السياق اللغوي (كاستبدال الاسم الواقع مبتدءا باسم آخر ، أو الفعل بالفعل أو حرف بحرف...) ولاكتشاف طبيعة هذه العلاقات الرابطة بين الوحدات : لابد من اعتماد عملية التقطيع على المحور الأفقي، وعملية لاستبدال على المحور العمودي لملاحظتها تطبيقيا.

6 –أمّا الفقرة الأخيرة فتتضمن شرحا وافيا لعملية التقطيع المزدوج الذي وضعه أندري مارتيني والذي ينتج منه : التّحصل على وحدات كبرى تمثّل المستوى الأول من التقطيع الذي يحوي وحدات لغوية لها دلالة أو معنى سماها (بالمونيمات) وهي الكلمات، والمستوى الثاني من التقطيع ينتج لنا الوحدات الصغرى التي لا تقبل التقطيع، وليس لها دلالة في ذاتها وهي الأصوات أو الحروف، وتشير صاحبة النص إلى دور عملية الاستبدال في تحديد مكان التقطيع، فاستبدال العناصر اللغوية المنتمية إلى جنسها في الموقع ذاته، هي التي تتيح لنا معرفة المكان ذاته الذي يجب أن نجري فيه التقطيع، وقد قدّمت أمثلة واضحة على ذلك.

انتهى-